

الباب الثامن

الطفولة

معناها . أهميتها . أدوارها .

obeikandi.com

الطفولة

معناها :

كثير من الناس يخطئون في تأويل معنى الطفولة ، وفي تحديد أمدها ، فمنهم من يعتبرها إلى الثانية عشرة من عمر الطفل ، ومنهم من يبالغ فيجعلها إلى العاشرة فقط ، والحقيقة أن الطفولة هي المدة التي يعتمد فيها صغار الكائنات الحية على كبارها في مأكلهم ومشربهم ، ومأواهم ، وسد مأربهم ، والدفاع عنهم ، وتدريبهم على مواجهة الحياة : وبعبارة أخرى هي العهد الذي يتحرر فيه المخلوق الحى من مسؤوليات الحياة ، اللهم إلا ما قد يتدرب عليه تدريجاً من أبسط المهمات ، وما يكتسبه شيئاً فشيئاً من التقاليد السائدة بين عشيرته . فطول أمدها إذن متوقف على تمام تكوين الطفل ، وعلى استيفائه حقه من التدريب على القيام بشئون الحياة اللازمة له ، بحيث يصير نافعا لنفسه وللمجتمع .

وعهد الطفولة يختلف باختلاف الحيوان ، فكلما ارتقت المخلوقات زادت مدة طفولتها كى تتدرب على القيام بأعباء الحياة التى تنتظرها . فالطائر الصغير يبقى فى حضنة أمه وأبيه ، يطعمانه ويحيطانه بالعناية ، ويؤديان مصالحه ، حتى يقوى ويستطيع الطيران ؛ ومن ثم يمكنه الحصول على طعامه وتأدية حاجاته الحيوية بنفسه . وبقدرته على ذلك تنتهى مدة طفولته .

والقطعة الوليدة تظل فى حماية أمها معتمدة عليها فى تغذيتها ، والحفاظة عليها ، وتدريبها على القيام بأعمالها المستقبلية مدة طفولتها التى تنتهى متى استطاعت أن تتولى شئون نفسها بنفسها .

وكذا الطفل الوليد ، يبقى تحت رعاية والديه ومربيه مدة طويلة . ولكنه لا يبقى طول حياته عاجزاً عديم النفع ، يعتمد على غيره ؛ بل هو

يرقى ويتطور ، ويتعلم من أبيه وتلقنه أمه ، وتهذبه الجماعة التي ينشأ بين أفرادها ، فيصبغونه بتقاليدهم ومعتقداتهم ، ويقلدهم في لغتهم وطرق معيشتهم ومختلف شؤونهم .

أهميتها :

وعلى ذلك ، فالإنسان أطول الحيوانات طفولة ؛ وذلك ليحصل في أثنائها على ما يعينه على مواجهة الحياة شيئاً فشيئاً . وهذا أمر تقتضيه الطبيعة ، فعقل الإنسان الذي ميزه الله به على سائر المخلوقات الحية ، وقابليته للتعلم ، وحاجاته ومطالبه الحيوية الكثيرة ، تستدعي طول عهد الطفولة . والتربية الحديثة تهتم اهتماماً كبيراً بهذا العهد من حياة المرء ، ويكفي أنها اعتبرته عهداً قائماً بذاته ، يجب أن يتمتع به الطفل . ولذلك حثمت على المربين استغلال نشاط الطفل الذاتي الذي يبدو في الطفولة بشدة وبكثرة ، في تربيته وتعليمه ، وجعل أعماله ضروباً من اللعب حتى يقبل عليها فرحاً مسروراً ، وحتى يستفيد من تجاربه وخبرته عن الحياة في نشأته الجسمية والعقلية والخلقية .

وبذلك كله نضمن أساساً متيناً نبني عليه حياة الطفل المستقبلية . فدور الطفولة إذن هو دور استعداد للحياة ، ولا غرابة أن يكون كذلك لأنه : —

١ — عصر ظهور الغرائز والميول الفطرية وتهذيبها وتعديلها . ومن المعلوم أن هذه الغرائز وتلك الميول ، هي أساس تصرفات الطفل المختلفة في هذه الحياة ، وأنها القوى التي توجهه في كل أطوار نموه ، فكل ما نراه من اعوجاج في خلق بعض الأفراد ، وشدوذ في البعض الآخر ، إنما يرجع إلى سوء توجيه الغرائز . وعلى العكس من ذلك ، إذا هي استوفت حقها من العناية بإشباعها إشباعاً معقولاً ، وتعديل مشيراتها ، ورفعها إلى المستوى الذي

تعمل التربية لتحقيقه ، ارتقت من المستوى الفطرى الحيوانى ، إلى مستوى إنسانى راق ، ومن الغرض المادى الفردى ، إلى الغرض المعنوى ، الاجتماعى . وبذلك ينشأ الطفل اجتماعيا محققا آمال التربية الحديثة .

وعلى كيفية توجيه الغرائز فى أطوار الطفولة المختلفة ، تصلح تربية الطفل أو تفسد ، وعلى آثارها يسعد أو يشقى .

٢ — عصر تكوين العادات والصفات الحميدة ؛ إذ لا شك فى أن جهاز الطفل العصبى وقتئذ يكون مرنا حساسا ، يتأثر إلى درجة كبيرة بما يحيط به من مختلف المؤثرات .

فكيفية معالجتنا لغرائزه المتنوعة ، وميوله المتباينة يؤثر فى تكوينه ، إذ ينشأ عن ذلك عادات وصفات مختلفة تكون حسنة أو سيئة ، تبعا لمعاملة الغرائز والميول . وهذه الصفات وتلك العادات قد ترسخ فى نفسه ، فيصعب استئصالها ، وهى التى تدفعه لأن يتخذ مسالك معينة فى الحياة .

٣ — عصر تهذيب الميول والوجدانات وتكوين العواطف ؛ فإن الوجدانات المهذبة والعواطف السامية ، تجعل الإنسان محترما محبوبا ناجحا فى الحياة ، فهى إن تكونت ، دفعت صاحبها إلى فعل الخير ، وجعلته يشعر بلذة الحياة . ويتمتع بجمالها ومسررتها ؛ وإن انعدمت فى الإنسان نشأ شاذا فى خلقه ، متقلبا فى مشاعره ، فظا فى إحساسه ، لا يعبأ بأحوال المجتمع ولا يكثر لغيره من الناس . فالعواطف والوجدانات السامية ، التى تغرس فى الطفل منذ طفولته ، تنشئه نشأة طيبة يكون لها أثر كبير فى إسعاد حياته وحياة من يحيطون به .

٤ — هو بوجه عام عصر التربية الصحيحة والتعليم الملائم . بل هو أوفق

الافوات لذلك . إذ أن الطفل النامى الذى لا تثقله مطالب الحياة ، وحاجيات المعيشة ، لاعتماده على الكبار فى ذلك ، يكون مملوءا حيوية ونشاطا ، يجهلانه قابلا للتزينة والتعليم .

والتربية الأولى التى يؤخذ بها الطفل هى التى تشكله جسما وعقلا وخلقا . وتصوغه فى قالب خاص ينطبع به فى أطوار حياته المختلفة . ولو أضعنا النظر ، لوجدنا أن كل الحالات الجسمية والعقلية والخلقية تقريبا ، تتأثر بتكوين الطفل الأول الذى أكسبته إياه تربيته المبكرة ، فى سنى حياته الأولى . وإن التجارب لتدلنا على أن إرجاء التعليم إلى سن متأخرة ، يجعل الناشئ لا يكتسب منه إلا القليل وبصعوبة وفى بطل .

ويتبين لنا من كل ما تقدم ما للطفولة من عظيم الأهمية فى حياة المرء ، ويكفى أن نقول إن عليها تبنى كل حياة الطفل المستقبلية .

أدوارها :

غير أننا إذا لاحظنا نمو الطفل من ولادته إلى بلوغه ، وجدنا أنه يمر فى أدوار متتالية يتميز كل منها بميزات بدنية وعقلية خاصة ؛ ورأينا أن هذا النمو سريع جدا فى بعضها ، وبطئ فى البعض الآخر . وقد يمتد عهد الطفولة إلى سن ٢٥ سنة . ولكن كثيرا من العلماء اصطلمحوا على أن يطلقوا عهد الطفولة على المرحلة من الولادة إلى قبيل عهد البلوغ ، أى المدة التى يكون فيها الطفل معتمدا كل الاعتماد على والديه . ويمكن تقسيم هذه المدة من حياة الطفل إلى مرحلتين ، متميزة الواحدة منهما عن الأخرى .

١ — الطفولة الأولى : وتنقسم إلى قسمين : الأول من الولادة إلى السنة

الثالثة من عمر الطفل ؛ والثانية من السنة الثالثة إلى السنة السابعة . والطفولة

الأولى هي الدور الأول من حياة الطفل ، وفيها يعتمد كل الاعتماد في مطالب حياته على أمه ويتميز هذا الدور بما يأتي :

(أ) تكون الأعضاء غير تامة النمو ، كما أن الحواس في البداية تكون غير قادرة على القيام بوظائفها ؛ فالسمع يكاد يكون معدوما ، والبصر يحس بالضوء إحساسا غامضا ، والشم يكون ضعيفا جدا ، أما اللمس فيكون أقوىها . ويبقى الطفل هكذا بضع أسابيع ، ثم تقوى بعد ذلك حواسه على الإدراك بسرعة .

ويقوم الطفل في عهد الطفولة المبكرة بحركات غريزية وعكسية . كالضحك والبكاء والمص وتحريك الجفون والأقدام والأيدي . ويقوى على الحركة شيئا فشيئا ، حتى يستطيع الحبو ثم المشي . وفي أثناء هذه المدة يبدأ الطفل في معرفة من حوله ، ويتدرب على نطق كثير من الألفاظ والعبارات ، وبذلك يمكنه أن يقرن المسمى باسمه ؛ وإذ ذاك ترتقى حياته العقلية ، وتنمو مدركاته الحسية تبعا لتجاربه .

(ب) يكون انتباه الطفل مقصورا في بادئ الأمر على ما يشوقه ويؤثر في حواسه ، كالأشياء البراقة والألوان الزاهية والأصوات المتنوعة . أما قدرته على الانتباه الاختياري فتظل محدودة .

(ج) تكون ملاحظته ضعيفة ، وينشأ عن ذلك ضعف إدراكه الحسي .

(د) ينمو خياله بالتدريج حتى يصبح أقوى ما يمكن فيما بين الثالثة والسادسة ، إذ يصل إلى درجة كبيرة لا يستطيع معها التفريق بين الحقيقة والخيال . ولذلك يميل إلى سماع القصص الخرافية ، كما يميل إلى التقليد التمثيلي

(هـ) يتجلى في الطفولة الأولى فيما بين الثالثة والسابعة النشاط الذاتي

بأجلى مظاهره ، وتنضج كثير من الغرائز كالاستطلاع والحل والتركيب والمقاتلة والاقتناء وغيرها ، وكذا الميول الفطرية العامة : فاللعب يظهر بوضوح ، ويكون غرض الطفل منه مجرد اللهو والعبث ، والتقليد كذلك ، ويتدرج من النوع المنعكس ، كابتسامة الطفل لابتسامة أمه ، إلى النوع التلقائي ، الذى به يقلد لغة أبويه وحركاتهم وأفعالهم وغير ذلك . وتكون قابليته للاستهواء قوية ، ويظهر فيه الميل الفطرى إلى مشاركة غيره وجدانياً فى كثير من الأوقات ، فهو يفرح لفرح أمه ، ويغضب لغضبها وهكذا .

وتستنفد كثير من طاقة الطفل الحيوية فى نمو جسمه وعقله ، ولذا يشعر بالتعب بسرعة ، ولا يستطيع إتقان القيام بالأعمال الدقيقة كالكتابة والرسم ونحوهما . وذلك لعدم وجود الاتصال الكافى بين أعصابه ، وعجزه عن ضبط حركاته .

(٦) ينزع الطفل دائماً إلى الأنانية وحب النفس ، ولا يكثر بالتقاليد الاجتماعية التى يكتسبها شيئاً فشيئاً باتساع بيئته الاجتماعية ، وبمخالطة غيره .

٢ — الطفولة الثانية : من السنة السابعة إلى السنة الثانية عشرة ، وتعرف بدور الغلومة أو البنوثة . وتتميز بما يأتى :

١ — يدخل الطفل هذه المرحلة وقد نما جسمه ، واكتسبت أعضاؤه مرانا وقوة ، وأصبحت صحته على أحسن حال . وهذا الدور يختلف عن الدور السابق فى أنه دور تكوين واستقرار ، لا دور انتقال ، لأن النمو يقل فى أثنائه ، بينما أنه كان سريعاً فى الدور السابق . لذلك فالطاقة الحيوية للطفل التى كان يستخدم معظمها فى نموه الجسمى فى الدور السابق ، تصبح متوفرة فى هذا الدور . ويتضح لنا هذا من شدة نشاطه وكثرة حركته ، ومن قدرته على مواصلة أعماله مدة أطول من ذى قبل ، دون أن يعثره التعب ، لأن مقاومته

له تكون كبيرة . هذا إلى أنه يستطيع القيام بأعمال أدق كثيرا من أعماله السابقة كالكتابة والأشغال والرسم وغيرها ، ويرجع ذلك إلى زيادة الاتصالات العصبية وترابط بعضها ببعض .

ب — تنشيط الحواس و يصير تأثيرها بما تقع عليه من الأشياء قويا سريعا . ونتيجة ذلك أن الإدراك الحسى يقوى ويرقى ، بحيث يصبح فى مقدور الطفل أن يدرك كثيرا من الفوارق بين الأشياء المادية ، ويصل به التمييز بين المدركات الحسية إلى حد كبير من الدقة .

ج — تقوى ذاكرته فى هذا الدور ، وربما تكون أقوى منها فى أى دور آخر .

د — يخطو التفكير خطوة كبيرة ، إذ يقوى فى الطفل الإدراك للأشياء العامة كما يستطيع أن يعلل ، و يناقش ، ويربط الأسباب بنتائجها فى دائرة المحسّات .

هـ — يزداد انتباهه قوة ، فيستطيع أن يحصره فى الأشياء أو الموضوعات التى تلائمه ، لمدة معقولة من الزمن . ولكنه يكره السير على وتيرة واحدة ، ويميل بسرعة العمل الواحد .

و — يتغير خيال الطفل عما كان عليه فى الدور السابق ، إذ يصبح ميالا لأن يُعمله فى دائرة الحقيقة والواقع ، فيتخيل ما يعرف أن له وجودا فى الحياة .

ز — تقوى فيه كثير من الغرائز السابقة ، وتنضج غريزة حب الاجتماع حوالى التاسعة . ويقل ميله للاستهواء لارتقاء تفكيره . أما ألعابه فتكون تعاونية ؛ وكثيرا ما تظهر فيها روح المنافسة . وترتقى أغراضها تبعا لنمو عقله .

ح — والطفل فى هذا الدور لا يزال غير قادر على فهم واجباته الأدبية

نحو صالح المجتمع ، فهو ما زال عاجزا عن مقاومة دوافع الأعمال والأقوال ،
التي قد لا تتفق وما يراه الناس مناسبة في الحياة الاجتماعية من العادات
والأخلاق .

دور البلوغ :

ولكى نوفي البحث حقه ، نرى أن نذكر كلمة مختصرة عن دور النمو
الذي يلي دور الطفولة ، وهو دور البلوغ الذي يبتدىء من حوالى الثانية عشرة
إلى السادسة عشرة .

وهذه المرحلة أخطر مرحلة في حياة الناشئ لما لها من الأثر الدائم في
تكوينه ولذلك اعتبرها الكثيرون أهم مراحل الحياة إذ يحدث فيها عدة
تغيرات فسيولوجية (جسمية) ونفسية ، يجب مراقبتها أشد مراقبة ، وإلا
أتت بآثار سيئة في صحة الطفل وعقله وخلقه ، وذلك نتيجة اشتداد العواطف ،
وتيقظ الغريزة الجنسية . وفيها أيضا تظهر ميول جديدة ، فالبالغون ينظرون
إلى الحياة نظرة تختلف عن سابقتها في دور الطفولة . كما أنه في هذا الدور يتم
تكوين شخصياتهم وأخلاقهم التي بها يميّزون في الحياة .
وأهم مميزات هذه المرحلة هي : —

١ — يكون نمو البدن سريعا جدا من حيث الوزن والطول ؛ ويبلغ نموه
الحد الأقصى في سن الخامسة عشرة ؛ كما أن القلب ينمو بسرعة عظيمة ، وكذلك
يزيد إنتاجه . وهناك ظاهرة هامة ، تلاحظ في أوائل هذا الدور وهي ، ضعف
سيطرة المخ على حركة العضلات ، وتكون نتيجة عدم ضبط هذه الحركات
في البالغ عند القيام بأى عمل دقيق . وكثيرا ما يلاحظ في هذه السن على الناشئ

الضعف والخلول بسبب استنفاد معظم القوى الحيوية في استكمال النمو الطبيعي .

هذا فضلا عن ظهور عوارض الأنيميا وبعض الاضطرابات العصبية عليهم ، مما يسبب عدم انتظام حركاتهم وتصرفاتهم ، ويقلل من التعاون بين سائر أعضائهم . وكثيرا ما نلاحظ أن البالغ في بدء هذا الدور لا يحسن عملا عقليا ولا بدنيا .

٢ — يقوى التفكير المنطقي عند النشء في هذه المرحلة ، فيتهيأ عقل البالغ لقبول قوانين العلوم ونظريات الرياضاة والمنطق وتطورات التاريخ وما إلى ذلك . كما تقوى ذاكرته ، ويرتقى كذلك خياله ، فيصير ابتكاريا عمليا بعد أن كان أداة للعب . وكثيرا ما يظهر فيه الميل إلى تأليف القصص والقطع الموسيقية وغيرها ، إذا كان في طبيعته استعداد لذلك .

٣ — تكون الانفعالات في هذه المرحلة ناثرة بشدة ، نتيجة لتقلب مبادئ الطفل وأفكاره . فهو تارة منشرح بآماله وأحلامه التي يود أن يحققها له المستقبل ؛ وطورا يكون عبوسا مكتئبا ، ينظر إلى مستقبله نظرة البائس . ولا غرابة في ذلك لأن هذا طور البلوغ الذي تبلغ فيه انفعالات الطفل أشدها .

وثورة الانفعالات في الناشئ ، توجب على المربي ، كيما يكوّن فيه العواطف السامية المؤسسة لشخصيته ، أن يكون صديقا ناصحا له وشفيقا عليه ، حتى يأمن الناشئ إليه ، ويفضى له بأسراره ، فيطلع بذلك على دخائل نفسه ، ويوجهه التوجيه الصحيح المناسب لمقتضى حاله .

٤ — تكتمل الغرائز الاجتماعية في الناشئ ، بعد أن كانت تغلب عليه الغرائز الفردية من قبل ؛ فيميل إلى تأليف الجمعيات المختلفة ، ومزاولة الألعاب

الرياضية ، والتعاون مع غيره من الناس ؛ وتقوى فيه روح التضحية لمصلحة الجماعة . أما الغرائز الفردية فإنها تتخذ أشكالا أرقى مما كانت عليه في العهدين السابقين ؛ فمثلا تتطور غريزة حب الاستطلاع في الطفل من مجرد ميل للوقوف على ظواهر الأشياء ، إلى ميل للتعمق في البحث ، وتنظيم المعلومات ، والوصول إلى قرارة الأمور وأصول المعرفة .

ولما كانت نزعة التدين من مظاهر هذا الطور ، وكانت نظرة البالغ إلى حقائق الدين وقواعده تختلف عما كانت عليه من قبل ، لأنه لا يقبل من المعلومات إلا ما يستسيغه بعد نقده وتحليله ، وجب علينا أن نحيطة بنحو ديني عملي صحيح ، وأن نبث فيه الروح القويم ، كيما يتشرب قلبه بالآداب الصحيحة ، التي تصبح النواة الصالحة لتقويم خلقه . وبذلك يقوى على كبح جماح نفسه ، ومحاسبتها على كل صغيرة وكبيرة قد يأتينا مخالفة للمبادئ الأخلاقية والدينية التي غرست فيه .

ويتخذ الناشئ عادة في هذا الدور مثلا عليا يحاول أن يحاكيها في أفعاله وحركاته . وقد يتغير مُثُلُهُ من بين والديه ومربيه وأقاربه والمعاصرين البارزين ؛ وقد يتجه إلى تقليد أبطال التاريخ وغيرهم ممن يثيرون إعجابه . لذلك يجب أن نكون مُثُلًا صالحة ليقتدى بنا أطفالنا ، فينسجون على منوالنا وينشئون بذلك نشأة طيبة .